المحاضرة الثالثة: وظائف الأدب الإسلامي/ ذ. سعيد المصلح/الفصل الرابع/ الفوجان:3و4.

حاجتنا إلى الأدب:

إذا كان الأدب هو ما يُعَبَّرُ به من فنون الشعر والنثر عن حقيقة شعور الإنسان وطبيعة إحساسه، تجاه غيره، وتجاه الوجود، بمختلف مظاهره، تحدوه عاطفة الأديب. فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا بحدة: هل الإنسان بحاجة إلى الأدب، أو يمكن الاستغناء عنه؟

إذا عرفنا أنَّ الإنسان جسد وروح، وعواطف ومشاعر، فإننا نؤمن أنَّ الأدب يلبي جزءا مهما من حاجاته الروحية[1]. فالأدب هو المعبّر الأفضل والأقوى - بين جميع الفنون - عن النفس الإنسانية، إذ له علاقة بكل جوانب الحياة الإنسانية.

والأديب لا ينتج أدبه لمجرد التعبير عن عواطفه وأفكاره، أو الرغبة في إنتاج فني، ولكن الحاجة تتطلب منه اتخاذ الأدب وسيلةً لتحليل النفس البشرية، ومنبراً للنقد الاجتماعي، وقناة للتوجيه، ودعوة إلى الإصلاح.. ولولا ذلك ما قال المؤرخون: إن الثورة الفرنسية الكبرى ما كانت لتثور، لولا الأفكار التي زرعها "فولتير، وروسو"، وهما من أساطين الأدب. ولَمَا كان "كارليل"[2] يقول: "نحن الإنكليز نرى شكسبير أنْفَس لدينا من الهند"، إذ علا في الأدب كَعْبُه، ومَلَكَ العقولَ سلطانُه، وهزّ بقصائده عواطِفَ الأمة الإنكليزية، فبوأَها مراتب العلاء، وحبَّبَ إليها الجمال والجلال.

والشعراء، والخطباء والأُدباء هم أبدا المحرّكون للساكن، الموقظون للهاجع الراقد، المنبهون للغافل، المتصَرِّفون بقلوب الأمة.. وأي حكم للأدب أو عليه إنما ينهض أساسا على قياس وظيفته في القيام بمتطلبات بيئته، وينطبق ذلك على مضمونه، كما ينطبق على طريقة صياغته.

ويرى الناقد رينيه ويليك:[3] أنَّ الأدب "يحقق المتعة والفائدة، ولا يجوز أن تطغى إحدى الوظيفتين على الأخرى، بل يجب أن تندمج المتعة والفائدة في العمل

---

[1] - عندما افتتح الروائي الروسيّ ليف تولستوي (1828-1910) مدرسة لأطفال الفلاحين في قريته بأسنايا بوليانا، أخذ يسرد على الأطفال الحكايات، فوجد أنَّهم يشعرون بمتعة كبيرة، ففهم أنَّ الأدب ليس وسيلة من وسائل التسلية التي تلجأ إليها الطبقات البورجوازية لتمضية الوقت، وإنما هو حاجة من حاجات الإنسان الفطرية، وفهم أنَّ الأدب لكلِّ الناس؛ للصغار والكبار، للمثقفين وغير المثقفين، للأغنياء والفقراء، وللشعوب كافة. ولكن لكل فئة من الناس أدبها. ورأى أرسطو (384-322) ق.م أنَّ المأساة "... تثير الرحمة والخوف فتؤدي إلى التطهير من هذه الانفعالات". ومن ثم استنتج أنَّ للأدب مهمة التطهير. انظر كتابه (فن الشعر)، الذي ترجمه إلى اللغة العربية أبو بشر متى بن يونس، وظهرت بعد ذلك ترجمات عدة منها ترجمة عبد الرحمن بدوي.

[2] - توماس كارليل (Thomas Carlyle/ 4 ديسمبر 1795 - 5 فبراير 1881) كاتب إسكتلندي، كاتب ساخر، مؤرخ... وتحدث في كتابه "الأبطال" عن صدق نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم-

[3] - (مواليد 1903) في كتابه (نظرية الأدب)، قام بترجمته الدكتور حسام الخطيب، وبالتحديد في فصل (وظيفة الأدب).

الأدبيّ اندماجاً عضوياً". ولكن مضمون الفائدة يختلف من شعب إلى آخر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى. وكذلك طريقة الوصول إلى المتعة والفائدة تختلف من أديب إلى آخر، ومن مدرسة أدبية إلى أخرى.

وقديما تحدث الفلاسفة الأوربيون منذ القدم عن وظيفة الأدب، فنجد أفلاطون اشترط لدخول جمهوريته الفاضلة أن لا تتعارض قصيدة الشاعر مع ما هو شرعي وخير، واشترط أن تُعرض القصائد على مجموعة من القضاة قبل أن يطلع عليها الجمهور.

أما تلميذة أرسطو؛ فالأديب عنده لا ينقل ولا يحاكي ما هو كائن، ولكن ما يمكن أن يكون، ... ووظيفة الأديب هي الابتكار والابتداع.

وكان كلٌّ من "شاتوبريان، وفيكتور هيجو" يَرَيَان أنَّ من لوازم المجتمع أن يكون له أدبٌ منسجم مع عقائده ومنهجه في التفكير..."[1] وكان شاتوبريان يعدُّ "الضمير المسيحي" جوهر الحَدَاثة...[2]

بل إنَّ "توماس ستيرنز إليوت" دعا إلى ربْط الأدب بالدين برباط وظيفي وغائي ومنهجي قوي، يقول: "يجب أن يكملَ النقد الأدبي بنقْد قائمٍ على موقف أخلاقي ولاهوتي مُحَدَّد"[3].

وهكذا أضحى التركيز على وظيفة الأدب في العصر الحديث مباشراً، وتعددت الوظائف بتعدد المذاهب، فالمذهب الكلاسيكي يدعو إلى تنقية النفس الإنسانية من النقائص والعيوب البشرية، لذلك سمي بالأدب الإنساني. ووظيفة المذهب الرومانسي التعبير عن الذات. ثم عادت الوظيفة (الاجتماعية) للأدب مرة أخرى على يد أصحاب المذهب الواقعي، فيعرض أخطاء المجتمع، بهدف الإصلاح. أما المذهب الجمالي (مدرسة الفن للفن) فكان يرى أن وظيفة الأدب هي المتعة الفنية.

فلا يَخفى تأثير الأدب في بَلْورة شخصيَّة الأمة، وصياغة وجدانها، والتعبير عن تصوُّراتها الفكريَّة والفنيَّة، وبناء المعرفة لديها.

وأما العرب فلم يَشِذُّوا عن هذه القاعدة؛ بل كان الأدب من أقوى العوامل في نفوسهم، وكان الباعثُ لكلِّ فضيلة لهم قبل الإسلام، يرجع إلى الأدب من شعر، وقصَّة، وخطبة، وعِظَة، ومَثَل؛ فهذا الباعث هو الذي هَوَّن عليهم بذل الْمُهَج في حفظ الذِّمَارِ، وصون العرض، وإغاثة الملهوف، والانتصار للضعيف، وقِرى

---

[1] - نظرية الأنواع الأدبية؛ لابيه سي فنسينت؛ ترجمة حسن عون، ص 98.

[2] - لذلك وضَع كتابه المشهور: "عبقرية المسيحيَّة " انظر: "مقدمة في المناهج النقدية "؛ بيير باربيرس؛ ترجمة: وائل بركات، وغسان السيّد، ص 141.

[3] - الاشتراكية والأدب؛ لويس عوض، ص 31، ت. س. إليوت (Thomas Stearns Eliot) (26 سبتمبر 1888 - 4 يناير 1965)، شاعر ومسرحي وناقد أدبي، حائز على جائزة نوبل في الأدب في 1948. أحد كبار الحَدَاثِيين في الأدب الغربي في هذا العصر، ولد في الولايات المتحدة الأمريكية، وانتقل إلى المملكة المتحدة في 1914، ثم أصبح أحد الرعايا البريطانيين في 1927.

الضيف، وإجارة المستكين، والإيثار على النفس.. وما كانت للعرب فعلة مجيدة، ولا دارت مَعْركة ظهروا فيها على أعدائهم إلا خلَّدتها أشعارهم، وسارت بها أزجالُهم. لذلك كان لأدبهم وظائف عدة؛ فضلا عن المتعة الأدبية والفنية، منها: الدفاع عن القبيلة، وهجاء أعدائها، وتسجيل أيامها، والتعبير عن قِيَمها ومُثلها.

وفي مرحلة صدر الإسلام، فقد اتخذ الأدب لنفسه وظيفة الدفاع عن المثل العليا التي نادى بها الإسلام، وحض الناس على الخير والابتعاد عن الشر. أضف إلى ذلك وظيفة التهذيب والتربية الدينية والتعليم...

وعرفت في الأدبين الأمويّ والعباسيّ وظائف جديدة للأدب؛ للتعبير عن حاجات النفس، إذ ظهر الغزل الإباحي عند عمر ابن أبي ربيعة، والغزل العذري، عند أمثال قيس بن الملوح... وبرزت في العصر العباسيّ ظاهرة التكسب بالشعر، فمدح الشعراء الحكام من أجل الحصول على المكافآت[1].

وبقي الأمر على هذا المنوال، إلى أن نَزَلَ الوحي على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - فنسخ الأدبُ الإلهيُّ كلَّ أدب قَبْلَه، وأقرّ من الأخلاق ما كان مستحسنًا، وأبطل ما كان من حَمِيَّة الجاهلية الجهلاء، فأصبح الأدب مقيَّدًا بالشرع، واعتدل مائلُه، وسلك المحجة البيضاء، وعدل عن بؤر الانحراف والإسراف. وبَدَهِيٌّ أن أدبًا أنجبه وأثْمَره الوحي، أن يفوق كل أدب عِلمًا وعملاً. وقد أحسن الشاعر في قوله[2]:

مَنْ ذا يُضَارِعُ فِي البيانِ عِصابَـةً * قدْ أَوْضَحُوا نَهْجَ البَلاغَـةِ نَيِّـرَا؟**
مَنْ ذَا يُطَاوِلُ فِي الْبَلاَغَةِ أَحْمَـدَا * وَصحَابَهُ وَأَبَا تُـرَابٍ حَيْدَرَا؟**
الْمُعْرِبِينَ إِذَا أَرَادُوا خَاطِرًا * عَنْهُ بِأَعْـذَبِ مَا يَكُونُ وَأَقْصَرَا**
وَالْمَانِعِينَ الْمُسْكِـرَاتِ وَقَوْلُهُمْ * مَا خَامَرَ الْأَلْبَابَ إِلاَّ أَسْكَـرَا**

نعم، لقد كان الأدب مُتَغَلْغلاً في كل ناحية من نواحي الحياة الإسلامية، لا يتَحَرَّك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلاَّ وللشعر والخطابة والبيان الأثرُ البليغ فيه.

هذه العلاقة تقودنا إلى السؤال: أَلِلْأَدَبِ وظيفةٌ واحدةٌ، أم وظائفُ متعددةٌ؟ وما هي؟ وما الذي يحددها؟ وهل تقف غاية الأدب عند حد الإمتاع واستثارة الحس الجمالي لدى المتلقي أم تتجاوز ذلك إلى غايات أُخر؟ إلى آخر هذه التساؤلات....

---

[1] - مدح أبو الطيب المتنبي (915-965م) كُلاًّ من سيف الدولة الحمداني أمير حلب، وكافور الإخشيدي حاكم مصر. إلا أنَّه كان صادقاً في مدحه لسيف الدولة الحمداني، أمّا كافور الإخشيدي، فمدحه في البداية، ثم هجاه هجاءً مُراً، قبيل رحيله عنه في ليلة عيد الأضحى، وذلك في قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

عِيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ عُـدْتَ يا عِيـــدُ * بِما مَضَى أَمْ لِأَمْـرٍ فيكَ تَجْـــدِيدُ**

وفيها يقول:

لَا تَشْتَرِ الْعَبْـــدَ إلَّا والعَصَا مَعَهُ * إنَّ العبيـدَ لَأَنْـــجَاسٌ مَنَاكِيـــدُ**

[2] - من رثاء شكيب أرسلان، من كتاب "مصطفى صادق الرافعي"، ص: 291 – 293. ومطلع القصيدة:

كَثُرَ التَّفَيْهُـقُ فِي الجَدِيـدِ وَنَهْجِـهِ * كَـمْ مَنْ تَـكَـلَّـمَ بِالجَدِيـدِ وما دَرَى**

وانظر "زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين"، بواسطة: سيد حسين العفاني، ج:4، ص: 429،

يقول ميخائيل نعيمة:[1] "وإذن فمهمة الأدب هي التعبير عن الإنسان وكلِّ حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً صادقاً من شأنه أن يساعد الإنسان على تفهم الغاية من وجوده، وأن يمهد الطريق إلى غايته. وإذن فللأدب رسالة سامية، وكل من أنكر على الأدب رسالته كان مارقاً من الأدب".

وارتباط الأدب بالعقائد والأديان والفلسفات، قديم وحديث؛ تقول "سلمى الخضراء الجيوسي": "إن العلامة المميّزة للحَدَاثة تَكمن في المحتوى، أو في رؤية العالم والحياة"[2]. ويقول عز الدين إسماعيل: "لو أننا أنعمنا النظرَ في حقيقة الفنّ، من حيث هو تعبير إنساني، وجدناه منذ بداياته الأولى شديدَ الارتباط بالعقيدة، ورجعة في التاريخ إلى الوراء تؤكِّد هذه الحقيقة، ... فليس هناك فنان معروف لَم يصدر في أعماله الفنيَّة عن عقيدة.."[3]

وإذا كان ذلك كذلك فإنَّ الأصل في الأدب الإسلامي أن يَصدر عن العقيدة، وأنْ يَحتكم إليها؛ **﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾**[4]؛ فهو أدب يسهم في إنقاذ الأمة الإسلامية من محنتها المعاصرة، ويعالج أدواءها، توحدا وتماسكا وتكافلا، قيما وممارسات، تخلية من النماذج القبيحة، وتحلية بالبدائل الجميلة. بل له الريادة في إنقاذ الإنسانية جمعاء؛ يدعو إلى تغيير المجتمعات وإصلاحها، والسير بها نحو الأفضل، وَفْقَ أقوم السبل، بالرأي السديد والبيان المشرق، والأسلوب القويم، النابع من المذهبية الإسلامية، ويقدم الأنموذج الواقعي والإنساني والعالمي، فيحرص على تزيين الخير وتقبيح المنكر في نفس المتلقي، بصورة تصل البشرية كلها بالله، عن طريق الكلمة المعبرة، والأسلوب الملائم الرائع...

- من هنا يحقق الأدب الإسلامي التوازن المنهجي في طرح المعطيات والقضايا الإسلامية على المثقف

والعلم المعاصر في تكامل مع وظيفة العالم المسلم، من خلال: الرؤية المترابطة لمكونات الإنسان وتكاملها وتوازنها، وما يحقق له التوازن بين دنياه وآخرته، وَفق القيم الحاكمة لحياته.

- الأدب الإسلامي يربي ويُعَلِّمُ ويُثَقِّفُ الجاهل، ويزيد في علم العالم، ويذكر الغافل، لتثبيت قلوبهم على الإسلام تصديقا لقوله تعالى:[5] **﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾**. وذلك عبر مختلف صوره التعبيرية من كتاب وقصة ورواية وشعر ورسالة ومقالة وخطبة..، وغير ذلك من وجوه التعبير الأدبي المتنوعة، مع التزام الصحة والصدق والنهج القويم، لتحقيق أكبر قدر من الانضباط الخلقي، وتنمية الحس الجمالي، مع الاستعلاء

---

[1] - في مقالة له بعنوان (ماهية الأدب ومهمته)، من مجموعة (دروب)، التي صدرت عام 1932.

[2] - مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الرابع، القاهرة، 1984، ص 12.

[3] - الشعر في إطار العصر الثوري؛ عز الدين إسماعيل، ص 18.

[4] - سورة الأنعام، الآيتان: 162- 163.

[5] - سورة طه، الآية: 114.

على الدنس والمغريات، والتوحد بين المعتقد والممارسة، وملء الفراغ النفسي والاجتماعي المعاصر، وتجاوز الرومانسية المريضة، ورفض الذوبان، لتحقيق الاقتران بين الفن والقيم، وطرح بدائل مقنعة لمعطيات الفنون الوضعية في ميدان القيم التربوية: البرغماتية والوجودية والمثالية والمادية والداروينية الاجتماعية...

- الأدب الإسلامي أحد وسائل الذود عن الدعوة، والسعي إلى نشرها بين الجماعات البشرية،
والدفاع عن الشخصية الإسلامية، والرد على أعداء الإسلام والمنحرفين عنه.

- الأدب الإسلامي يبني الحضارة الإنسانية باعتباره وسيلة مثلى لنقل تجارب البعض إلى الآخرين وتمكينهم من الاستفادة منها.

- الأدب الإسلامي يؤرخ للأمة، باعتباره مرآة المجتمع وانعكاساته من خلال المزج بين الصورة الأدبية الهادفة والملتزمة وبين نقل الوقائع التاريخية.

- الأدب الإسلامي تصوير للحياة والإنسان والكون في صورة فنية مُلتزمة بفلسفة الإسلام للجَمال؛ فهو مرتبط بالإنسان أينما حل، "... لا يغيب عن جيل، ... ولعله أحد مظاهر الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وإحدى مقومات الطبيعة الإنسانية"[1].

- الأدب الإسلامي لا يقبل قطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطور
أو الحداثة أو المعاصرة، وكل حديث عنده مرتبط بجذوره القديمة.

- الأدب الإسلامي يعتبر اللغة العربية الفصحى هي اللغة العربية الأولى له، ويرى من واجبه الحفاظ
عليها وحمايتها.

- الأدب الإسلامي مؤتمن على فكر الأمة ومشاعرها، وعليه أن ينهض بهذه الأمانة بتصوره
العقدي الصحيح، ومعارفه الإسلامية الكافية.

ومما يعين الأدب الإسلامي بقوة على أداء وظائفه في الوقت الراهن:

- امتداد الصحوة الإسلامية إلى أبعد بقاع الأرض، وتوليه التعبير عنها.

- قدرة الإسلام بأدبه وفكره لمعالجة حاجات الإنسان وآماله وتطلعاته، في حين فشلت الآداب الأخرى في التعبير عن الإنسان والكون والحياة التعبير المتزن، وأخفقت في تحقيق قيمة الحياة للإنسان.

ولعل الوظيفة الأم للأدب الإسلامي، إلى جانب وظائفه السياسية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والتربوية والتعليمية والمنهجية...، هي الوظيفة العقدية التي تستهدف إيصال الخطاب الإسلامي إلى المتلقّي بأكبر قدر من التأثير. وكل الوظائف الأخرى يمكن أن تندرج ضمن هذه الوظيفة الكبرى، لكي يتضح للإنسانية أن البديل

[1] - انظر عدنان علي رضا النحوي: الأدب الإسلامي: إنسانيته وعالميته، ص: 21.

الحق الوحيد المخلّص من معاناتها، هو الإسلام، الذي يحرك مشاعر هذه الأمة، ويحمّل الأدب سلاح الكلمة المعبرة الطيبة الهادفة لكي يقف في صف الدعاة، ويقوم بتوصيل رؤية الإسلام للكون والحياة والعالم والإنسان، بالصورة المشخصة والتجربة المعيشة والخبرة الحية...، عملاً بقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ**﴾.[1] وحينها ستعود هذه الأمة إلى صدارة العالم، وتكون كما وصفها الله –تعالى-: ﴿**... خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس تَامُرُونَ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ وتُومِنُونَ باللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ المُومِنُونَ وأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ**﴾.[2]

وبناء على هذه الحقيقة فإن الأدب الإسلامي المعاصر أدب متميز، ينبع من المذهبية الإسلامية، ويسهم في النهوض الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية، وفي تقديم النموذج الواقعي والإنساني والعالمي، موضوعه الإنسان بعواطفه وأشواقه، وآماله وآلامه، وحسناته وسيئاته، ودنياه وآخرته. كما يشمل الحياة بكل ما فيها من سعادة وشقاء، ومقومات وقيم. ويشمل الكون؛ بَرَّهُ وبحرَه، وأرضَه وسماءَه..

[1] - سورة النحل، الآية: 125.

[2] - سورة آل عمران، الآية: 110.